التربية الدينية الإسلامية نظرة تاريخية

للدكتور عبد البديع عبد العزيز الخولي(*)

١- توطئة:

بدأ الوحى على النبى (ص) في غار حراء قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام بفاتحة التنزيل ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾. العلق: ١-٥.

وابتداء الرسالة الخاتمة بالأمر بالقراءة وتكرير هذا الأمر باسم الرب الخالق الذى يعلم الإنسان ما لم يعلم يعنى أن الإسلام دين علم ونور، وأن كل إنسان جدير بالانتساب إلى هذا الدين عليه أن يطلب العلم الذى رفع الله شأنه كما رفع شأن العلماء ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾. الزمر: ٩، ويقول تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾. آل عمران ١٨. فبدأ عز وجل بنفسه في الشهادة على أجل مشهود، وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً ونبلاً لأهل العلم الذين قال عنهم رسول الله (ص) «العلماء ورثة الأنبياء» رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان.

ومعلوم أنه لا رتبة للبشر فوق النبوة، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة الجليلة فالأنبياء لم يورثوا الدرهم والدينار وإنما ورثوا العلم الذى اصطفاهم الله به.

(*) أستاذ التربية الإسلامية بكلية التربية جامعة الأزهر

وتدل النصوص الإسلامية الكثيرة والآثار والشواهد العقلية على مكانة العلم ومنزلة العلماء في الإسلام واهتمام الإسلام بطلب العلم ودور العلماء في الحياة الإسلامية، وقد أسهب كثير من الأئمة والعلماء قديماً وحديثاً في الحديث عن هذا الموضوع[1].

وعندما نتحدث عن <التربية الدينية الإسلامية> من منظور تاريخى فأول ما يتبادر إلى العقل أن نحدد ماهيتها، وإذا كانت في مؤتمر عن "تطوير من مناهج التربية الدينية الإسلامية في التعليم العام بالوطن العربى"، فأول الأصول العامة لهذا المؤتمر هو تحليل المفاهيم المرتبطة بموضوع المؤتمر ومنها مفهوم "التربية الدينية الإسلامية" ولهذا موضعه عند آخرين من الباحثين، لكن الإشارة المجملة ضرورية في هذا المدخل وهى أن الإسلام كما أخذه الصحابة رضوان الله عليهم عن رسول الله (ص) يتضمن تلقائياً في الشخصية المسلمة التربية الإسلامية والعلم الإسلامي، لأنه الخضوع والانقياد لله عز وجل بالطريقة والمنهج الذى بينه الرسول (ص) المبلِّغ عن ربه، ولا خضوع كاملاً بغير اعتقاد وعلم وعمل، ولذا كان الصحابة في مراقى إسلامهم وتدينهم يحفظون القدر المحدد من آيات القرآن الكريم (عشر آيات) ويفهمون هذا القدر ويعملون به، ولا يجاوزون هذا القدر من الآيات "حتى يعلموا ما فيهن فكنا نتعلم القرآن والعمل به" كما روى أبو عبد الرحمن السلمى تلميذ عثمان وعلى وابن مسعود رضوان الله عليهم.

---

(1) للاستزادة في هذا الجانب يمكن مثلا الرجوع إلى:

الغزالى: إحياء علوم الدين، ج١، كتاب العلم، ابن قيم الجوزية: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، يوسف القرضاوى: الرسول والعلم.

والكتاب الكريم هو أصل التربية والعلم في الإسلام، وعندما استجدت أحداث في الحياة الإسلامية ولم يجد لها الصحابة رضوان الله عليهم نصوصاً صريحة في الكتاب والسنة اجتهدوا لاستخراج الأحكام الشرعية للحوادث المستجدة، وتفرع اجتهاد الصحابة والتابعين ومن أتى بعدهم فظهرت الاهتمامات العلمية التى تدور كلها في إطار الكتاب والسنة سواء منها ما يتصل بالقرآن أو الحديث أو طرق وأصول الاستنباط من الأصلين أو غير ذلك من علوم نبعت من الكتاب والسنة وارتبطت بهما أشد الارتباط.

هذه العلوم التى بدأ تمايز مناهجها وتدوين أصولها ومسائلها من القرن الثانى هى علوم الشريعة أو علوم المقاصد، وارتبطت بها علوم الوسائل والأدوات وهى علوم العربية، ثم ما يلى ذلك من علوم الدنيا عقلية وحرفية.

ولم تكن الحدود واضحة في بداية الأمر بين علوم الشريعة، لأنها كلها ترجع إلى الكتاب والسنة، ومن ثم كان الاقتران أو الاقتراب بين هذه العلوم أمراً عادياً. كما نرى مثلاً في جيل التابعين وتابعى التابعين، ولعل مدرسة الحجاز ويمثلها الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) وتلميذه الشافعى (ت ٢٠٤هـ) ومدرسة الحديث في العراق ويمثلها الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) خير مثال للعلاقة المتداخلة بين الحديث والفقه.

وقد استخدم المسلمون منذ فجر الإسلام مفهوم "العلم" ليسع علوم الشريعة أو علم الحديث الشريف، أو الجزء الرئيسى من المنهج وهو مقررات التربية الإسلامية أو ما يتصل بمبادئ التربية الإسلامية وأصولها وطرقها والعملية التعليمية في الإسلام .... الخ

وكثرت المؤلفات المتصلة بهذه الجوانب ومنها مثلاً: كتاب العالم والمتعلم المنسوب إلى أبى حنيفة (ت ١٥٠هـ)، وآداب المعلمين لابن سحنون (ت ٢٥٦هـ)، وتقييد العلم للخطيب البغدادى (ت ٤٦٤هـ) وجامع بيان العلم وفضله وما ينبغى في روايته وحمله لابن عبد البر القرطبى (ت ٤٦٣هـ)، وإحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى (١٥٠٥هـ)، ونقد العلم والعلماء أو تلبيس إبليس لابن الجوزى (ت ٥٩٧هـ)، ومفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، وبيان زغل العلم والطلب للذهبى (ت ٧٤٨هـ)، وفضل علم السلف على الخلف لابن رجب الحنبلى (٧٩٥هـ)، وغير ذلك كثير في تراثنا مما يندرج تحت مفهوم "العلم" ويسع المقررات أو موضوعات العلم أو مسائل تربوية وتعليمية.

ولعل أقرب مفهوم في تراثنا لموضوع حديثنا "التربية الدينية الإسلامية" هو ما سماه الغزالى وغيره العلم الذى هو فرض عين، أى العلم الذى يتعين على المسلم البالغ العاقل إدراكه والعمل به وهو يشمل ثلاثة جوانب: الاعتقاد والفعل والترك، فإذا بلغ الإنسان فأول واجب عليه تعلم كلمتى الشهادة وفهم معناهما، أما الفعل فيشمل تعلم الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج وكل ما يتصل بذلك مما هو فرض عين، وأما الترك فيجب تعلم المتروكات بحسب أحوال الإنسان وقدراته، فلا يجب على الأبكم مثلاً تعلم ما يحرم من الكلام ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر، ويعنى ذلك مراعاة مقتضى الحال في تعلم المتروكات فيكون ذلك أسهل في التعلم، ومما ينبغى المبادرة في إلقائه إلى المتعلم الإيمان بالجنة والنار والحشر والنشر حتى يؤمن به ويصدق، وهو من تتمة الشهادة، لأن الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام

يقتضى فهم الرسالة التى هو مبلغها وأن من أطاع الله ورسوله فله الجنة ومن عصاهما فله النار، وكل إنسان في أحواله اليومية لا يخلو من وقائع ترتبط بعقيدته وعبادته ومعاملاته فيلزمه السؤال عما يقع له من المستجدات وتعلم ما يتوقع وقوعه، لأن النبى (ص) أراد بالعلم في الحديث الشريف (طلب العلم فريضة على كل مسلم (رواه ابن ماجه) علم العمل الذى هو مشهور الوجوب على المسلمين(٢).

وتشمل التربية الدينية الإسلامية في مدارس التعليم العام في العصر الحاضر القرآن الكريم والحديث الشريف والعقائد والعبادات والسيرة والتهذيب والشخصيات الإسلامية، وترتبط القيم الإسلامية ومحاربة الخرافات والاعتقادات الباطلة بفرع أو أكثر من الفرق الدراسية السابقة.

وعلوم التربية الدينية الإسلامية التى يتعلمها الطلاب في مراحل التعليم العام هى في أهدافها ومبادئها وموضوعاتها <هى الشرعيات من الكتاب والسنة التى هى مشروعة لنا من الله ورسوله وما يتعلق بذلك من العلوم التى تهيئها للإفادة ... و) تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن الكريم وبعض متون الحديث وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات(٣).

وهذه المواد الشرعية هى التى تكون محتوى "التربية الدينية الإسلامية" أو فرض العين في العلم الإسلامي، ولا يعنى هذا الإقلال من علوم أخرى لا

---

(٢) الغزالى: إحياء علوم الدين، ج١، المرجع السابق، ص٢٤-٢٨.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، دار الشعب، دت، ص٤٠١، ٥٠٥، ٥٠٦.

تدرس في التعليم العام مثل علوم القراءات وأصول الفقـه، لأن طبيعـة البحـث تفرض علينا تتبع "التربية الدينية الإسلامية" أو علم فرض العين وهو يقوم أساساً على الكتاب والسنة وما يتصل بهما من مقررات تناسب استعدادات وقدرات طلاب التعليم العام في الوطن العربى.

٢- التربية الإسلامية من فجر الإسلام إلى النظاميات:

دعا الرسول (ص) إلى الإسلام ثلاث سنين مستخفياً حتى أمره الله عز وجل أن يصدع بما جاء من عند الله فصعد على الصفا ودعا قومه. وكان مما قال لهم ﴿ . . . إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله . . . ﴾[٤].

ومن على الصفا بدأ رسول الله (ص) دعوته العلنيـة إلى الإسلام وبدأ الاعداد التربوى والتعليم الإسلامي لمن آمنوا بالرسالة والرسول الخاتم، وكان (ص) أول المعلمين في هذه الأمة ثم تلاه اصحابه لما أظهر رسول الله (ص) الإسلام ومن معه وفشا أمره بمكة ودعا بعضهم بعضا فكان أبو بكر يدعو ناحية سراً وكان سعيد بن زيد مثل ذلك، وكان عثمان مثل ذلك وكان عمر يدعو علانية وحمزة بن عبد المطلب وأبو عبيدة بن الجراح فغضبت قريش من ذلك وظهر منها لرسول الله (ص) الحسد والبغى[٥].

ونعرف جميعاً أطوار دعوة الرسول (ص) إلى الله في مكة والمدينة

---

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، المجلد الأول، بيروت، دار صابر دت، ص٢٠٠.

(٥) المرجع السابق، نفس الصفحة.

وما لاقاه وأصحابه من صنوف الإرهاق والعنت والاغراء والحصار والتآمر وكيف واجه الرسول وأصحابه هذه الصعاب حتى اذن الله عز وجل لرسوله بالهجرة إلى يثرب ثم اذن له بالقتال فبدأت صيغة جديدة من التمكين في الأرض والدعوة إلى الله وفي هذا الإطار سنذكر أن الدعوة إلى الإسلام بالإقرار باللسان والتصديق القلبى وفعل الجوارح وتنفيذ متطلبات الإسلام تتضمن التربية والتعليم وفق الأصول الإسلامية فباب الإسلام هو الدعوة إلى الله ولا يكتمل إسلام المرء إلا بالتربية الإسلامية وتعلم ما هو فرض عين مما يقيم به الإنسان حياته الإسلامية، ويروى عن أبى عبد الرحمن السلمى الذى أخذ قراءة القرآن الكريم عرضاً عن عثمان وعلى وابن مسعود وزيد بن ثابت وأبي بن كعب رضى الله عنه... أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الآخر حتى يعلموا ما فيهن فكنا نتعلم القرآن والعمل به وأنه سيرث القرآن بعدنا قوم يشربونه شرب الماء لا يجاوز تراقيهم بل يجاوزها هنا ووضع يده على حلقه[٦].

وواضح أن صياغة السلوك الإنسانى صياغة إسلامية في كل شئ هى الإجراء الطبيعى للمسلم بعد دخوله الإسلام أو بعد بلوغه وهى بمثابة إعادة تربيته لمن عرف قبل الإسلام عقيدة أخرى، وتعزيز وتمكين لما سبق غرسه وتعلمه في مراحل الطفولة والصبا للمسلمين[٧].

ونلاحظ أن سلوكيات الرسول (ص) هى موطن الاقتداء، لأنها سلوكيات

(٦) الذهبى (أبو عبد الله): معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق وتعليق محمد سيد جاد الحق، ج١، دار الكتب الحديثة، ط١، ص٤٥-٤٧.

(٧) ابن سعد: المرجع السابق، ص٢٩١- ٣٥٩.

مربية فالله عز وجل أدبه فأحسن تأديبه، وكان خلقه القرآن كما تقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، ومن يقف تربوياً أمام سلوكياته (ص) إبتداء من وقفته على الصفا يعلن دعوته إلى مرض موته وهو يوصى بأن يصلى أبو بكر بالناس مروراً بمجاهداته في مكة وجهاده في المدينة ووفادات قبائل العرب عليه التى فاقت سبعين وفادة ورسله إلى أهم حكام عصره. من يتأمل هذا فسيجد النموذج الإسلامي القابل التطبيق في كل عصر بعيداً عن بعض المعطيات البيئية التى يحاول أن يلصقها بعض الظاهرية من البدو بالإسلام وهى عادات تتغير في كل زمان.

وقد وجه الرسول (ص) أصحابه للدعوة إلى الله وتربية المسلمين وتعليمهم الكتاب الكريم وسنة رسول الله (ص) فقاموا رضى الله عنهم بهذا الدور الهام لا كمعلمين مهنيين ولكن كأصحاب رسالة مبلغين عن رسول الله (ص) يستوى في ذلك الحر والعبد والغنى والفقير، لأن العلم لم يكن في صدر الإسلام حرفة وصناعة وأن التعليم صدر الإسلام والدولتين (الأموية والعباسية) لم يكن كذلك (مهنة وصناعة) ولم يكن العلم بالجملة صناعة إنما كان نقلاً لما سمع من الشارع وتعليماً لما جهل من الدين على جهة البلاغ، فكان أهل الأنساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه (ص) على معنى التبليغ الخبرى لا على وجه التعليم الصناعى. إذ هو كتابهم المنزل على الرسول (ص) منهم وبه هدايتهم والإسلام دينهم، قاتلوا عليه وقتلوا، واختصوا به من بين الأمم وشرفوا فيحرصون على تعليم ذلك وتفهيمه للأمة لا تصدهم عنه لائمة الكبر ولا يزعهم عاذل الانفة ويشهد لذلك بعث النبى (ص) كبار اصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الإسلام وما

جاء به من شرائع الدين، بعث في ذلك من أصحابه فمن بعدهم، فلما استقر الإسلام ووشجت عروق الملة حتى تناولتها الأمم البعيدة من أيدى أهلها، واستحالت بمرور الأيام أحوالها وكثر استنباط الأحكام الشرعية من النصوص لتعدد الوقائع وتلاحقها فاحتاج إلى قانون يحفظه من الخطأ وصار العلم ملكة تحتاج إلى التعلم فأصبح من جملة الصنائع والحرف ... واشتغل أهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان فدفع للعلم من قام به من سواهم وأصبح حرفة المعاش وشمخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدى للتعليم واختص بالمستضعفين وصار منتحله محتقراً عند أهل العصبية والملك(٨).

يتضح من كلام ابن خلدون قيام الصحابة وتلاميذهم بالتربية الإسلامية على سبيل التبليغ عن رسول الله (ص)، وكانت ممارستهم التربوية والتعليمية تشمل مختلف الجوانب في الشخصية الإسلامية، الأمر الذى يصبح فيه تعليم القرآن الكريم والسنة الشريفة والعقائد والعبادات وبعض المعاملات والسيرة النبوية أمراً أساسياً أو فرض عين يتعلمه كل مسلم.

وكان تعلم الإسلام أو العلم أو التربية الإسلامية يشمل كما سبق القول القرآن الكريم والسنة الشريفة (على اختلاف أوجه العناية بهما من ضبط وتدوين) ومعطيات القرآن والسنة في مجالي العقيدة والشريعة وكان للأحداث السياسية والتغيرات الاجتماعية أثر هام في إذكاء البحث والاستنباط من الأصلين الأمر الذى بدأ في ظهور الفرق الإسلامية في القرن الأول، والمذاهب الفقهية في الثانى والثالث والثورات الروحية (المتصوفة) والعقلية

(٨) ابن خلدون: المقدمة: نقلا عن: ابراهيم النجار وآخر: الفكر التربوى عند العرب، تونس، النادى الثقافى لدار المعلمين، ١٩٧٣، ص٧٣، ٧٤.

(المعتزلة) في القرون الثلاثـة الأولـى، وكـل هـؤلاء علـى اختـلاف توجهـاتهم الاجتماعيـة والسياسية والحزبيـة ارتبطـوا بالتربيـة الإسـلامية المسـتمدة مـن الكتاب الكريم والسنة الشريفة مع اختلاف درجة الارتباط ومداه.

وقد تركز الاهتمام العلمى من المبعث إلى أواخر القرن الثانى في علـوم الشرع لأنها قوام الحياة الإسلامية ومعالم هذا الاهتمام تبدو فيما يأتى:

أولاً: القرآن الكريم:

نزل القرآن منجماً علـى رسـول اللـه (ص) فـي ثـلاث وعشـرين سـنة، وكان ينزل مرتبطاً بالحوادث فنظم حياتهم وفق ما يريـد اللـه، وتوفـي رسـول الله (ص) وكان القرآن في صدور الصحابة وفي صحف مفرقـة كتبهـا كتـاب الوحى، وفي عهد الصديق أبى بكـر رضـى اللـه أمـر بجمـع القـرآن بمشـورة عمر بعد معركة اليمامة التى استشهد فيها كثير من قراء القـرآن، فجمـع زيـد بن ثابت القرآن الكريم من الصحـف التـى كتبهـا كتـاب الوحـى ومـن صـدور الصحابة وأودع الصحف الكثيرة المكتوب فيها القرآن عند أبى بكر ثم انتقلت إلى عمر ثم إلى حفصة بنت عمر رضى الله عنهم.

وعندما اختلف بعض العراقيين والشاميين في قراءة بعض آيات القـرآن الكريم في الحج زمن عثمان رضى الله عنه وخيف على المسلمين أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى أخذ عثمـان الصحـف المجموعـة مـن أم المؤمنيـن حفصة وعهد إلى بعض الصحابة ومنهم زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير أن ينسخوا عدة مصاحف من الصحـف التـى جمعـت فـي عهـد

الصديق وأرسلهما إلى الأمصار وأمر بما عداها من الصحف أن تحرق[٩].

وكانت جهود أبى بكر وعثمان رضى الله عنهما في جمع القرآن وتعميم النسخ الموحدة على الأمصار الإسلامية في مقدمة الأعمال التى حفظت للأمة وحدتها عندما حفظ الله لها الكتاب الخاتم ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (سورة الحجر الآية ٩).

ومع أن القرآن الكريم المنزل على رسول الله (ص) متواتر بين الأمة إلا أن الصحابة (رضوان الله عليهم) رووه عن رسول الله (ص) على طرق مختلفة في بعض الفاظه وكيفيات الحروف في أدائها وتنوقل ذلك واشتهر إلى أن أستقر منها سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضاً وأختصت بالأنتساب إلى من أشتهر بروايتها من الجمّ الغفير، فصارت هذه القراءات السبع أصولا للقراءة وربما زيد بعد ذلك قراءات أخرى لحقت بالسبع إلا أنها عند أئمة القراءة لاتقوى قوتها في النقل[١٠].

وواضح أن القراءات المشهورة لاتتناول من القرآن غير بعض الألفاظ كما لاتغير القراءة من أداء الحرف لدوره الذى حدده الله في اللفظ والجملة.

وكان المسلمون من العرب يفهمون القرآن ويعلمون معانيه لأنه نزل بلغتهم وعلى أساليب بلاغتهم وكان ينزل جملاً جملاً وآيات آيات لبيان

---

(٩) الذهبى: المرجع السابق، ص٣٦، وأيضا أحمد أمين: فجر الإسلام، النهضة المصرية، ط١٢، ص١٩٥، وأيضا: عبد البديع عبد العزيز الخولى: إعداد معلمى القرآن الكريم في القرون التسعة الأولى للهجرة، مجلة التربية، جامعة الأزهر، العدد الثانى، ١٩٨٣، ص٥٣.

(١٠) ابن خلدون: المقدمة، دار الشعب، مرجع سابق، ص٤٥٢.

التوحيد والفروض الدينية بحسب الواقع ومنها ما هو في العقائد الإيمانية ومنها ما هو فى أحكام الجوارح ومنها ما يتقدم ومنها ما يتأخر ويكون ناسخاً له.

وكان النبى (ص) يبين المجمل ويميز الناسخ من المنسوخ ويعرفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولا عنه(١١).

وأخذ الصحابة عن رسول الله (ص) ماروى عنه من تفسير لآيات الكتاب الكريم وأجتهدوا في فهم مالم يرد فيه تفسير عن رسول الله (ص)، وأستعانوا في ذلك بما ورد في اللغة العربية من أسرار لدلالات الألفاظ، وفي بعض مالا تعلق للأحكام الشرعية به مثل بدء الخلق أخذ بعض الصحابة عن بعض أهل الكِتاب الذين دخلوا في الأسلام مثل كعب الأحبار وعبد الله بن سلام ما كان معروفاً عندهم وليس مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى فيه الصحة التى يجب العمل بها وتساهل المفسرون في مثل ذلك فاشتملت كتب بعض المفسرين على الغث والسمين لأن بها بعض المنقولات عن أهل التوراة ومعظمهم من حمير الذين أخذوا باليهودية فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم ممالا تعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها وتقبل المفسرون ذلك منهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة(١٢).

وفي عصر التابعين دخلت في التفاسير بعض الأسرائيليات النصرانيات لكثرة من دخل من أهل الكتاب في الإسلام وفي القرآن الكريم أحداث عن

(١١) ابن خلدون، المرجع السابق، ص٤٠٣.

(١٢) ابن خلدون، المرجع السابق، ص٤٠٤.

اليهود والنصارى فتتوقل في تفسيرها ما قدمه من كانوا من أصل يهودى مثل وهب بن منيه الذى نقل عنه الطبرى تفسير كثير من الآيات المتصلة ببنى إسرائيل، ومثل ابن جريج وهو رومى نصرانى الأصل نقل عنه الطبرى تفسير آيات وردت عن النصارى، وقال بعض العلماء عن ابن جريج أنه كان يضع الحديث(١٣).

وقد نبه العلماء قديماً وحديثاً إلى بعض ما تسرب من أسرائيليات ونصرانيات إلى كتب التفسير وغيرها، ولعلماء الأزهر دور كبير في هذا المجال.

السنة الشريفة:

السنة هى ما أثر عن رسول الله (ص) من قول أو فعل أو تقرير، وهى مبينة للكتاب الكريم ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾ (سورة النحل الآية ٤٤).

ولم يهتم بعض الصحابة بكتابة السنة في عهد رسول الله (ص) وروى في كتابتها وعدم كتابتها بعض ما قد يوهم التعارض، لكن يمكن القول أن رسول الله (ص) نهى عن كتابتها في البداية خوفاً من الألتباس بآيات القرآن الكريم، فلما نزل الكثير من القرآن الكريم وأمن الرسول على آيات الذكر الحكيم من الألتباس بالسنة أباح كتابة السنة، وممن عرفت كتابته سنة رسول الله (ص) عبد الله بن عمرو بن العاص.

وبعد عهد الرسول (ص) كان الكثير من الصحابة يقلل من الرواية عن

(١٣) أحمد أمين: فجر الإسلام، مرجع سابق، ص٢٠٥.

رسول الله خوفا من الخطأ وكان عمر بن الخطاب من أكثر الصحابة حرصا على حديث رسول الله فكان لا يقبل حديثا لا يعرفه إلا بعد أن يسمعه من أكثر من صحابى، وقد راجع بعض الصحابة كأبى موسى الاشعرى وأبى بن كعب رضى الله عنهم في بعض الاحاديث غير متهم لهم وإنما تثبتاً وتيقناً.

وكان من الصحابة من روى الكثير من السنة الشريفة كأبى هريرة وعائشة وأنس بن مالك وابن عمر وابن عباس رضى الله عنهم، ومنهم من روى القليل، ويرجع ذلك إلى طبيعة نشاط الصحابى ومدى ملازمته للنبى (ص) فضلاً عن الاستعدادات العقلية خاصة وكان الاعتماد على الذاكرة لأن الحديث لم يدون في العصر الأول، وفي غمرة الأحداث السياسية والاجتماعية استباح قوم لأنفسهم وضع أحاديث ونسبتها كذباً إلى رسول الله (ص) وقد روى مسلم عن ابن عباس رضى الله عنه "أنا كنا نحدث عن رسول الله (ص) إذ لم يكن يكذب عليه فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه، ويغلب على الظن أن حديث "من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" إنما قيل لحادثة زور فيها على رسول الله بعض الحديث.

وكثر الوضع في الحديث ونسبته إلى الرسول (ص) وذلك لأسباب أهمها: الخصومات السياسية، والخلافات الكلامية والفقهية، ومتابعة بعض من يتسمون بسمة العلم لهوى الحكام والأمراء، وتساهل البعض في باب الفضائل والترغيب والترهيب، وشدة الحرص على عدم قبول العلم إلا ما اتصل بالكتاب والسنة، وساعد على الوضع عدم التدوين للحديث وقد أدى هذا إلى نهوض جماعة من العلماء الصادقين لتنقية الحديث مما ألم به وتمييز الصحيح من السقيم ولهم في ذلك طرق ومسالك منهجية فيها كثير من التفصيل

المعروف في هذا الباب، لكن ما يهمنا هنا أن من أقدم كتب الحديث المدونة موطأ مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) وقد رتبه على أبواب الفقه وأودعه أصول الأحكام من الصحيح المتفق عليه(١٤).

وفي القرن الثالث جاء البخارى إمام المحدثين وخرج أحاديث السنة على أبوابها واعتمد على ما أجمعت عليه مدارس المحدثين في الحجاز والعراق والشام دون ما اختلفت فيه، وكرر الأحاديث في مسنده الصحيح يسوقها في كل باب بمعنى ذلك الباب الذى تضمنه.

ثم جاء مسلم بن الحجاج فألف مسنده الصحيح حذا فيه حذو البخارى في نقل المجمع على صحته وحذف المتكرر منها وجمع الطرق والأسانيد وبوبه على أبواب الفقه وتراجمه ثم كتب أبو داود السجستانى وأبو عيسى الترمذى وأبو عبد الرحمن النسائى في السنن بأوسع من الصحيح وقصدوا ما توفرت فيه شروط العمل أما من الرتبة العالية في الاسناد وهو الصحيح وأما من الذى دونه وهو الحسن وغيره، وهذه هى المسانيد المعتمدة في الملة وهى أمهات كتب الحديث في السنة(١٥).

الفقه:

الفقه في اللغة الفهم والفطنة، والعلم وغلب في علم الشريعة وفي علم أصول الدين، والفقيه العالم الفطن، والعالم بأصول الشريعة وأحكامها،

---

(١٤) أحمد أمين: المرجع السابق، ص٢٠٨- ٢٢٢ وأيضا: ابن خلدون: المرجع السابق، ص٤٠٦.

(١٥) ابن خلدون: المرجع السابق، ص٤٥٧.

واستعمل فيمن يقرأ القرآن ويعلمه (ج) فقهاء[١٦].

وفي الحديث الشريف استعمل الفقه بمعنى العلم فمن يحمل العلم ويعيه فهو فقيه يقول رسول الله (ص) «نضر الله عبداً سمع مقالتى فوعاها ثم أداها إلى من يسمعها فرب حاصل فقه لا فقه له» رواه أصحاب السنن بطرق مختلفة، وفي حديث آخر خصص الفقه بالوعى بالدين <من يرد الله به خيراً يفقه في الدين> متفق عليه، وقد وصف رسول الله (ص) معاذ بن جبل بقوله <أعلم أمتى بالحلال والحرام معاذ بن جبل> رواه الترمذى، وروى عن عمر بن الخطاب قوله <من أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل> رواه البيهقى في السنن الكبرى، فهذا يدل على أن الفقه هو علم الحلال والحرام في العبادات والمعاملات أو كما يقول ابن خلدون[١٧]: <الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والأباحة، وهى متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه>.

ولم يكن الصحابة كلهم ذوى مقدرة على استخراج الأحكام من الكتاب والسنة، وكانت الوقائع تتجدد فلا توفى بها النصوص، من هنا ظهرت الحاجة الشديدة إلى استنباط الأحكام من الكتاب والسنة، وكان القائمون بذلك من الصحابة يسمون <القراء> أى القراء الذين يقرأون الكتاب ويعلمون أسباب التنزيل والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ وغير ذلك مما سمعوه من الرسول (ص)، وعندما كمل الفقه وتمكنت من النفوس أساليب الاستنباط

(١٦) ابراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١٩٦١، ص٧٠٥.

(١٧) ابن خلدون: المرجع السابق، ص٤١٠.

أصبح الفقه صناعة وعلماً فبدل بالقراء اسم الفقهاء والعلماء، وانقسمت مناهج الفقه فيهم إلى منهجين:

منهج أهل الرأى والقياس وهم أهل العراق وكان الحديث قليلاً فيهم فاستكثروا من القياس ومهروا فيه فلذلك قيل: أهل الرأى وكانت لهم سمات واضحة منها: كثرة التفريعات واحياناً الافتراضات، وقلة روايتهم للحديث واشتراطهم فيما يؤخذ به من الحديث شروطاً لا يسلم معها إلا القليل، وذلك لما يعرفونه من كثرة الوضع للأحاديث في العراق، وقد استقر مذهب أهل الرأى في أبى حنيفة (ت ١٥٠ هـ) وأصحابه.

أما المنهج الآخر في الفقه فهو منهج أهل الحديث وهم أهل الحجاز، ومن سماتهم الكراهية الشديدة للسؤال عن الفروض، لأن مصدرهم بعد القرآن الكريم هو الحديث والحديث محدود والافتراضات والحوادث غير محدودة، لذا كرهوا السؤال عن حادثة إلا إذا وقعت فعلاً ومن سماتهم الاعتداد بالحديث والتساهل أحياناً في بعض شروطه لتقديمه على الرأى كما روى عن أحمد بن حنبل، ومن أعلام هذه المدرسة مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ)، والشافعى (ت ٢٠٤هـ) وأحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ).

وهناك منهج أهل الظاهر الذى أسسه داود الظاهرى (ت ٢٧٠هـ) ثم مهر فيه بعد ذلك ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) الذى عاب أهل الرأى والقياس وحمل على الأحناف حملة شديدة[١٨] وأودع منهجه وفقهه في كتابيه: الأحكام في أصول الأحكام، و <المحلى>. وإلى أهل الحديث وأهل الرأى تنسب المذاهب

(١٨) ابن خلدون: نفس المرجع، ص٤١٠- ٤١٠، وأيضا: أحمد أمين: فجر الإسلام، مرجع سابق، ص٢٢٥- ٢٤٨.

الفقهية الأربعة التى عليها سار العمل في العبادات والمعاملات لدى أهل السنة والجماعة.

علم التوحيد:

كان علم التوحيد يعرف في القرون الأولى بعلم الكلام وهو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد ... ثم إن المعتبر في هذا التوحيد ليس هو الإيمان فقط الذى هو تصديق حكمى فإن ذلك من حديث النفس وإنما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس، كما أن المطلوب من الأعمال والعبادات أيضاً حصوله ملكة الطاعة والانقياد وتفريغ القلب عن شواغل ما سوى المعبود حتى ينقلب المريد السالك ربانياً[١٩].

ولعل ابن خلدون في حديثه عن الأدلة العقلية للعقائد وأثر العقائد في النفس المؤمنة الذى عبر عنه بحصول صفة من الإيمان تتكيف بها النفس وتفريغ القلب بعد انقياده لله مما سوى الله لعله بذلك يقدم لنا الصيغة التربوية العلمية للمؤمن الذى يبدأ بإسلام الوجه لله والانقياد لأوامره ثم التخلى عن كل ما سواه سبحانه فيصير المؤمن عبداً ربانياً وهو أقصى ما يصله بشر بمجاهداته.

وفي هذه الفترة ظهرت الاتجاهات الرئيسية في علم التوحيد أو علم الكلام كما عرف في التراث الإسلامي، وكان المسلمون يؤمنون بالقضاء

(١٩) ابن خلدون: المرجع السابق، ص٤٢٣- ٤٢٥.

والقدر كجزء من العقيدة الإسلامية ثابت بالأصول الإسلامية ومن آيات القرآن الكريم ما فهمه بعض المسلمين على أنه حرية للإنسان في الفعل تتسق والتكليف والثواب والعقاب، ومن الآيات الكريمة ما فهمه البعض على أن الإنسان مجبور في أفعاله وأن هذا يتسق مع الإيمان بالقضاء والقدر.

ومع وجود النصوص الإسلامية التى يدل ظاهرها على الجبر المطلق أو الاختيار المطلق كان الصحابة رضوان الله عليهم والمسلمون الأوائل يضعون كل جهودهم فيما أراده الله منهم لا فيما أراده بهم إيماناً بالعدل الإلهى المطلق، لكن الأحداث التى شهدها مجتمع المسلمين في أواخر عهد الراشدين وما ترتب عليها من قيام حكم أموى لا يقوم على مبادئ الخلافة الراشدة أثارت المسلمين لاستلاب حقهم في اختيار خليفة يرضون عنه يؤدى حق الله فيهم ويرعى مصالحهم وفي الصحابة رضوان الله عليهم من كانت تهفو إليه قلوب المسلمين حينذاك.

أحس معاوية بن أبي سفيان رأس النظام الجديد بما يعتمل في نفوس كثير من المسلمين فرأى أن يضفى على الخلافة الأموية <الشرعية> التى تفتح للأمويين مغاليق القلوب وأن يقيد المسلمين بقيود <لاهوتية> وخارجية غير حقيقية تربطهم في مسار محدد لهم وتسيرهم في طريق عليهم أن يمضوا حفإذا آمن المجتمع الإسلامي بما تريده العصبية الأموية من إيمان بالقدر المحتم الذى لا فكاك منه وبالمشيئة الآلهية التى لا راد لها سلب هذا المجتمع الاختيار ولم يبق له غير طريق واحد هو الطريق الذى أراده بنو أمية، وقد كاد المجتمع الإسلامي حينئذ أن ينهار حين سلبت منه كل قوى الاختيار وخصوصاً أن قراء الشام ذوى التأثير الكبير في الناس اعلنوا فكرة الجبر

المطلق وأنها هى التفسير الوحيد للآيات القرآنية، فعلـوا ذلك ارضـاء للخليفـة المغتصب وأمر الخليفة عماله في مختلف الأقاليم بنشر الفكرة يؤمن بها الكبير قسراً ويرضعها الصغير ويحبو بها وعليها>(٢٠).

أراد معاوية أن يستل من قلـوب المسلمين غضبهم عليـه وتمرده علـى الخليفة الراشد الرابع وأن يثبت في أذهانهم أن خلافته إنما كـانت بقضـاء اللـه وقدره الذى لا راد له ولا فكاك منه، فأشاع الفكرة وشجع مذهب الجـبر وأخذ هو وخلفاء بنى أمية من بعده يبثون الجبر بمختلف الوسائل، ويوضـح هذا مـا رواه البخـارى فـي الصحيـح عـن رواد مولـى المغيرة بـن شـعبة قـال: كتـب معاوية إلى المغيرة اكتب إلى ما سمعت النبى (ص) يقـول خلـف الصـلاة <لا إله إلا الله وحده لا شريك له اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطـى لمـا منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد ... وقال بعض العلماء إن ورادا أخبره بهذا ثم وفد بعد على معاوية فسمعه يأمر الناس بهذا القول(٢١).

وتذكر المصادر أن عبد الملك بن مـروان بعـد أن قتـل عمـر بـن سـعيد خرج إلى الناس فقيه موافق له ليقول: إن أمير المؤمنين قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والأمر النافذ(٢٢).

---

(٢٠) علـى سـامى النشـار: نشـأة الفكـر الفلسـفى في الإسـلام، ج١، دار المعـارف، ط٨، ص٣١٤، ٣١٥.

(٢١) عبـد الحليـم محمـود (الإمـام): التفكيـر الفلسـفى في الإسـلام، ج١، الأنجلـو المصريـة، ١٩٥٥م، ص١٩٧.

(٢٢) أحمد محمود صبحى: الفلسـفة الأخلاقيـة في الفكـر الإسـلامى، دار المعـارف، ١٩٦٩م، ص١٥٦.

وتذكر مصادر أخرى أن ابن عباس رضى الله عنهما قد كتب إلى <قراء مجبرة الشام يلعنهم لمظاهرتهم العاصين ولكونهم أعوان الظالمين الذين يحملون إجرامهم على الله وينسبون شر فعالهم إليه>[٢٣].

أشاع بنو أمية الجبر لأنه يبرر مظالمهم ويستر عوراتهم فدفعوا الناس إلى أن يفسروا كل ظلم بقضاء الله وقدره، وأن القدر الآلهى هو الذى فرض الأمويين على أعناق المسلمين وعلى بيت مالهم، وكان طبيعياً أن يكون لهذا الاتجاه رد فعل في المجتمع الإسلامي وأن يوجد من يعلن أن ربط الجبر بالقضاء والقدر والرضا بالمظالم خطأ، وأن الإنسان حر في التكليف وظهر ذلك أول الأمر في البصرة حيث المترفون ومن ارتبطوا بالسلطة الأموية ومن يأتون المعاصى متعللين بالقدر، لذا ظهر معبد بن خالد الجهنى يتصدى لمزاعم الأمويين وفقهائهم وينفى كون القدر سالباً للاختيار في أفعال العباد ويدافع عن شرعية التكاليف ثم ضاقت عبارته في غمار حماسه فقال <لا قدر والأمر أنف>[٢٤].

ويروى أن معبداً ذهب هو وعطاء بن يسار إلى الحسن البصرى وقالا: يا أبا سعيد هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين ويأخذون أموالهم ويقولون إنما تجرى أعمالنا على قدر الله ويرد عليهما الحسن <كذب أعداء الله> فمعبد الجهنى أول من أعلن القول بحرية الإرادة واثبات الاختيار للإنسان بما يعنيه ذلك من دور واضح للإنسان في حياته، وهو أول من أنكر باسم العدل الآلهى مظالم بنى أمية، ويرى الذهبى أن معبداً <تابعى صدوق> يرى الجور

(٢٣) أحمد محمود صبحى: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢٤) عبد الحليم محمود: المرجع السابق، ص١٩٧، ١٩٨.

يملأ أطباق الأرض ويرى تبجح الجائرين وتعللهم بالقدر فكان لا بد مما ليس منه بد، فثار على بنى أمية فقتله الحجاج عام ٨٠هـ>[٢٥].

قتل الأمويون معبداً لكن فكرته لم تمت فقد أخذها غيلان الدمشقى الذى اشتهر بقوله باختيار العبد وبأن الإمامة تصلح في غير قريش ويستحقها كل من كان قائماً بالكتاب والسنة وأنها لا تثبت إلا بإجماع الأمة، وغير ذلك من آراء نشرها في عهد عمر بن عبد العزيز وقيل أن عمر حاوره ثم ولاه تصفية الأموال المصادرة من بنى أمية وأنه تولى ذلك بحماسة وبطريقة أثارت عليه الأمويين فأضمروا الانتقام منه حتى إذا تولى هشام بن عبد الملك الخلافة (١٠٦- ١٢٦هـ) طلب غيلان وقتله شر قتلة وأشاع أنه قتله باسم الدين، بينما كانت آراؤه، في حرية الاختيار والمطالبة بالعدل الاجتماعى، ورأيه في الإمامة بالخروج أى الثورة كما يقول الشهرستانى.. هى السبب الحقيقى في قتله[٢٦].

هذه بدايات وملابسات قضايا هامة شغلت طلاب العلم وغيرهم من المسلمين قروناً طويلة وكانت لها سلبيات كثيرة في التربية الإسلامية، ولن نخوض في هذا المحيط الواسع في هذه العجالة وإنما نقدم المعالم المؤثرة في حركة التعليم الإسلامي في عصر بنى العباس (١٣٢هـ- ٦٥٦هـ)الذى اهتم فيه خلفاء العصر الأول وبخاصة المنصور (ت ١٥٨هـ) ثم الرشيد والمأمون

---

(٢٥) عبد الحليم محمود: نفس المرجع، ص١٩٨، ١٩٩، وأيضا:على سامى النشار: نفس المرجع، ص٣١٨- ٣٢١.

(٢٦) عبد الحليم محمود: نفس المرجع، ص١٩٩- ٢٠١ وأيضا:على سامى النشار: نفس المرجع، ص٣٢١- ٣٢٤.

بالترجمة من اللغات الأجنبية لأسباب مختلفة وبلغ اهتمامهم بالترجمة مداه بإنشاء بيت الحكمة وهو دار علم ودار ترجمة وخزانة كتب وبه مرصد متصل به، وقد أنشأه المأمون لا الرشيد عام ٨٣٠هـ ويعده البعض أعظم المعاهد الثقافية التى ظهرت بعد المتحف السكندرى الذى أسس في القرن الثالث قبل الميلاد(٢٧)، ويرى آخرون أن بيت الحكمة <أول مكتبة ذات شأن في العالم الإسلامي، ولعله أول جمعية علمية أو جامعة إسلامية يجتمع فيها العلماء للبحث والدرس ولجأ إليها الطلاب فكان بذلك مركزاً علمياً شمل علوم الطب والفلسفة وغيرها(٢٨).

ولم يكن عمل بيت الحكمة ولا المترجمين السابقين عليه عملاً عشوائياً وإنما كانت الترجمة بصورة عامة انتقائية فقد اهتم العباسيون بترجمة ما احتاجوا إليه وما رأوا أنه يجبر نقصاً عندهم فترجموا كتب الطب والمنطق والفلسفة عن الاغريق، وترجموا عن الهندية الرياضيات والفلك والأدب وبعض الآلهيات وعن الفارسية ترجموا النظم السياسية وبعض الأدب والتاريخ وكان العباسيون في بعض نظمهم السياسية والاجتماعية يدينون للفرس بالكثير، ولم يهتموا كثيراً بالأدب الاغريقى الذى يتوله بعض المسلمين في دراسته الآن لأنهم كانوا في غنى عنه بالشعر العربى الذى كان بحق ديوان العرب، وهذا يدل على أن العباسيين تفهموا الحركة الفكرية التى قاموا بها بدليل <أنهم بدأوا بكتب العلم العملية لا بكتب الفلسفة النظرية فبدأوا بنقل

(٢٧) فيليب متى وآخرون: تاريخ العرب، ج٢، بيروت، دار الكشاف للنشر والتزيع، ط١٩٦٥، ص٤٩٧.

(٢٨) عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء في تقدمه، دار المعارف، ١٩٧٥م، ص٥٩.

كتب الرياضيات والفلك والطب (كان المنطق والفلسفة داخل الطب حينذاك) ولما كثرت لديهم كتب العلوم اتجهوا صوب كتب الفلسفة النظرية، ليتمموا أداء رسالتهم الثقافية>(٢٩).

ولعل البعض يتساءل: ما علاقة الترجمة بالتعليم الإسلامي لدى العباسيين؟ إن هناك علاقات واضحة بينهما في تراثنا على الرغم من حرص بعض الأئمة على نفي علاقتهم ببعض المترجمات التى تأثروا بها ونظرة إلى الكتابات السلفية في الطبيعة الإنسانية والتربية الخلقية ونظرية المعرفة عند أمثال ابن سينا ومسكوية وابن حزم والغزالى وابن الجوزى وابن تيمية وابن القيم وغيرهم يدرك إلى أى مدى استفاد المسلمون من المترجمات فيما رأوا أنه لا يتعارض مع الأصول الإسلامية في مثل قوى النفس والحكمة العلمية النظرية والحكمة العلمية والوسط الأرسطى وغير ذلك مما هو شائع حتى في كتابات أشد العلماء والفقهاء هجوماً على المنطق والفلسفة(٣٠).

ولايعنى هذا خلو المترجمات من الآثار السيئة فبعض ما ترجم كان من

---

(٢٩) عمر فروح: تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٠م، ص١٤٤.

(٣٠) يمكن على سبيل المثال الاستدلال على أثر المترجمات الإغريقية في الفكر التربوى لدى المسلمين بالرجوع إلى: الغزالى في ميزان العمل وغيره، ابن تيمية المجلد العاشر من الفتاوى (علم السلوك)، مسكويه في تهذيب الاخلاق، ابن حزم في رسائل ابن حزم تحقيق احسان عباس، والتقريب لحد المنطق، وابن القيم في مفتاح دار السعادة، ج١، ص٢٩٧، والفوائد ص٣، ٢٨، ٢٩، وابراهيم النجار وغيره،الفكر التربوى عند العرب، التربية العقلية والتربية الاخلاقية، ص٢٥٩- ٣٣٥، عبد البديع عبد العزيز الخولى: التربية والتعليم عند ابن الجوزى، عالم الكتب قضايا تربوية، ١٩٩١م، ص٩٠- ٩٢.

الفكر الإغريقى أو الهندى وكانت له مردودات فكرية لا يقبلها المسلم المحافظ مثل المغالاة في الإعتداد بالعقل فيما هو من قضايا النقل ومثل: حديث بعض المسلمين عما يجب على الله ونقدهم بمرارة بعض صحابة رسول الله (ص) وغيرها من موضوعات أثارت الخواطر كما في قضية خلق القرآن التى شغلت ثلاثة من خلفاء بنى العباس.

كان الخليفة المأمون مثقفا حر التفكير يحيط نفسه بمجموعة من العلماء، وكان المعتزلة أقربهم إلى عقله الفلسفى، لنهم أكثر اعتمادا على العقل، وكان منهم من يرى أن يبقى الاعتزال مذهبا فكريا كغيره من المذاهب، في حين كان يرى آخرون أن تفرضه الدولة بسلطانها لأنه عقيدة صحيحة في رأيهم، وتوارى أصحاب الاتجاه الأول بالوفاة أو بالعزل، وتولى أحمد بن أبى داود منصب قاضى القضاة وكان من أصحاب الاتجاه الثانى الذى كان يرى فرض الآراء بمعونة السلطة[٣١].

وكان المأمون يعقد مجالس المناظرة في قصره، ويرى أن هذه المجالس تساعد على إزالة أسباب الخلاف بين العلماء، وكانت الاهتمامات والمناهج العلمية في آخر القرن الثانى وأوائل الثالث تبدو جد مختلفة فأصحاب العلوم القديمة (الطبيعيات والرياضيات والطب والفلسفة) التى اعتمدت على الترجمة يعتمدون على الاستدلال العقلى والتجريبى في علومهم، وأصحاب الحديث والسيرة يعتمدون أساسا على النقل، لأن علوم الشريعة مستمدة من القرآن والسنة، وأهل الفقه يجمعون بين النقل والعقل، من هنا كان اختلاف المناهج وميادين العلم، ومن الطبيعى في هذا العصر الذى أتاح الخلفاء العباسيون فيه

(٣١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج٣، النهضة المصرية، ط١٠، ص١٦٢- ١٦٤.

قدرا كبيرا من الحرية للعلماء أن تظهر آراء جديدة بتأثير الترجمة ومعطيات الثقافات القديمة التى حملها بعض المسلمين من تراثهم السابق على الإسلام، لهذا كان من المسائل التى أثيرت في مجالس المأمون مسألة خلق القرآن وكان أهل الاعتزال يقولون: "بنفى صفات المعانى عن الله تعالى ومنها الكلام لأن اثباتها يؤدى إلى تعدد القدماء وذلك ينافى التوحيد، وكان من النتائج اللازمة لذلك قولهم أن القرآن مخلوق لأنه أصوات وحروف وهى ليست قائمة بذاته تعالى بل يخلقها الله في غيره كاللوح المحفوظ أو جبريل أو النبى صلي الله عليه وسلم، وكان المعتزلة يؤيدون قولهم بأدلة عقلية وأدلة نقلية، ولكن أهل السنة والمحدثين عارضوهم بإصرار. وتدخل المأمون تدخلا عنيفا واستعمل سلطته ليرغم الناس على القول بخلق القرآن، ويأخذ عليه كثير من الكتاب هذا الموقف الذى حارب فيه الحريات واستعمل السيف لتقوية جانبه وأرهق علماء عصره الذين عارضوه فيما اعتقد"(٣٢).

ولن ندخل في تفاصيل هذه القضية ومحنة الإمام أحمد بن حنبل فيها، ولكن نذكر أن الدولة العباسية شغلت نفسها طوال عهود ثلاثة من الخلفاء (المأمون والمعتصم والواثق) من عام ٢١٨هـ إلى عام ٢٣٤هـ بقضية خلق القرآن كعقيدة رسمية للدولة تفرضها على المحدثين والفقهاء وسائر العلماء وليس في بغداد وحدها ولكن في مصر وغيرها من الولايات الإسلامية، وقد امتحنت الدولة الكثير من العلماء والقضاة والشهود وعزل من علمه من لم يقل بخلق القرآن، وقد بعث الواثق إلى قاضى مصر محمد بن أبى الليث

(٣٢) أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، ج٣، النهضة المصرية ١٩٧٤، ص٢٤٦.

يأمره بامتحان الناس وحبس المعارضين، ومنع أصحاب مالك والشافعى من الجلوس في المسجد، وكان المصريون حينذاك يعتنقون مذهبى مالك والشافعى وحدهما(٣٣).

واستمرت الامتحانات والملاحقات للعلماء وطرد المخالفين للعقيدة الرسمية من وظائفهم إلى أن تولى المتوكل الخلافة عام ٢٣٢هـ فأبطل القول بخلق القرآن عام ٢٣٤هـ/٨٤٨هـ "لما افضت الخلافة إلى المتوكل أمر بترك النظر والمباحثة في الجدال والترك لما كان عليه الناس في ايام المعتصم والواثق وأمر الناس بالتسليم والتقليد وأمر الشيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة"، كما يقول المسعودى(٣٤).

انتهت بقرار المتوكل سطوة المعتزلة الذين اعتنقوا حرية الرأى لكنهم قيدوه طوال ستة عشر عاما (٢١٨هـ-٢٣٤هـ) وانتصر أهل الحديث وأخذوا يلاحقون المعتزلة وكان الحنابلة بزعامة أحمد بن حنبل هم أصحاب النفوذ لدى المتوكل ومن أتى بعده، وقد قيدت السلطة الآراء والأفكار إلى درجة كبيرة وغدا المحافظون من المحدثين والفقهاء ذوى سلطان كبير في الدولة العباسية(٣٥).

وقد أساءت السلطة العباسية تربويا بفرض عقيدة خلق القرآن فحجرت

---

(٣٣) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج١، النهضة المصرية، ط١٩٦٤، ص٧٥، ٧٦، ٨١، ٢٠٣.

(٣٤) المسعودى: مروج الذهب، ج٣، ص٣٨٨، نقلا عن: أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج٣، النهضة المصرية، مرجع سابق، ص١٩٩.

(٣٥) أحمد أمين: المرجع السابق، ص١٩٩- ٢٥١، وأيضا ضحى الإسلام، ج٢، ص٤٨.

على العقول وجمدت الأفهام وخالفت السلف في قضية تعلو على مستوى العامة ومن ثم كان إشراكهم في هذه القضية أمرا خاطئا أو تكليفا بما لايطاق على حد تعبير الشاطبى وهو لايتفق ومبادئ الإسلام.

وكان تدخل الحكومة بسلطانها وسيوفها بمثابة من أراد أن يجعل مجالس المأمون والعلماء مجمعا كمجامع القساوسة يقررون فيه ما يشاءون ثم يرغمون الناس على القول بما يقررون جاهلين نفسية الشعوب وأن الإرغام لايجدى، كما لايجدى أن تكون الأمة من الفلاسفة الذين يعرفون الجوهر والعرض والمحدود كما أراد المعتزلة بعقلهم الفلسفى الجاف(٣٦).

وإذا كان المعتزلة أهل العقل استخدموا السلطة لفرض آرائهم فإن المتوكل بمطاردته المعتزلة ومناصرة الحنابلة هيأ النفوس لمزيد من السيطرة على العقول وتحديد مجالات التفكير والبحث عندما أمر الناس "بالتسليم والتقليد"،ثم تتابعت الأحداث فسار الخلفاء على منواله حتى أصدر القادر بالله الخليفة العباسى (ت ٤٢٢هـ/١٠٣١م) "العقيدة الرسمية" للدولة المسماة "الاعتقاد القادرى" وألزم بها الناس كعقيدة رسمية يعاقب من خالفها فيعزل المعلمين من التعليم ويتعرضون لأقسى مايتعرض له أنسان، ففى عام ٤٠٨هـ/١٠١٧م استتاب القادر الشيعة والمعتزلة عن الآراء المخالفة لأهل السنة فنهاهم عن الكلام فيها وتدريسها أو المناظرة فيها ووقع التائبون محضرا بذلك ثم هددهم الخليفة بأنهم متى خالفوه حلت بهم عقوبة يتعظ بها

(٣٦) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج٣، ط٩، ١٩٧٨، ص١٩١- ١٩٢.

أمثالهم[٣٧]. "وفي سنة ثمان وأربعمائة استتاب القادر بالله أمير المؤمنين فقهاء المعتزلة الحنفية فأظهروا الرجوع وتبرأوا من الاعتزال ثم نهاهم عن الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والرفض (التشيع) والمقالات المخالفة للإسلام وأخذ خطوطهم بذلك وأنهم متى خالفوه حل بهم من النكال والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم، وامتثل يمين الدولة وأمين الملة أبو القاسم محمود أمر أمير المؤمنين واستن بسنته في أعماله التى استخلفه عليها من خراسان وغيرها في... المعتزلة والرافضة والاسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة وصلبهم وحبسهم ونفاهم وأمر بلعنهم على منابر المسلمين وايعاد (تهديد) كل طائفة من أهل البدع وطردهم من ديارهم وصار ذلك سنة في الإسلام[٣٨].

صار سنة في الإسلام كما يزهو ابن الجوزى أن يتشرب الأنسان العقيدة بالقسر والتقليد الذى يرتبط بالتعصب وضيق الأفق وتأثيم الآخرين لا بالاقتناع والسماحه دونما حجر على الآخرين أن يتخلفوا في مذاهبهم طالما لم يخالفوا الكتاب والسنة.

وصار سنة في الدولة العباسية أن يصلب أو يطرد أو يحبس ويمنع من التدريس ويعلن على المنابر من قام بالأركان الخمسة في الإسلام لكن اختلف مع السلطة في التفرقة والمذهب الذى تعتنقه وتعلن أنه وحده مذهب أهل السنة والجماعة.

---

(٣٧) عبد المجيد أبو الفتوح بدوى: التاريخ السياسى والفكرى للمذهب السنى في المشرق الإسلامى، جدة، عالم المعرفة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٨٨، ٨٩.

(٣٨) ابن الجوزى: المنتظم، ج٧، حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٨هـ، ص٢٨٧.

ترتب على الاعتقاد القادرى أن صار الحاكم لا الكتـاب والسنة والأئمـة والفقهاء هو مصدر الحق والصواب في التفكير الدينى وفي الأمور الاجتهادية التى هى بطبيعتها تدعو إلى الاجتهاد لأنها مستجدة غير منصوص عليها في الكتاب والسنة، ومع نبل الهدف لدى القادر باللـه وهو المحافظـة على عقيدة أهل السنة والجماعة إلا أن الأسلوب وهو التقليد المرتبط بالغش والتلقين وأخذ الاتجاهات الرسمية في التفكير الدينى بدون تدبر أمر يأباه الإسلام ولم يفعله الرسول (ص) ولا الراشدون رضوان الله عليهم وهم أعلم الناس بعد رسول الله (ص).

وما فعله بنو أمية في تبنى أفكار دينية ذات أهداف سياسية فعله بعض بنى العباس في تبنى بعض الأفكار الدينية في فترة ومقابلها في فترة أخرى وفرض ذلك في مجالس العلماء وحلقات الدروس لينشأ على ذلك الصغير ويقلد الكبير ومن خرج على هذه الأفكار أو "العقائد الرسمية" خرج على الدين وكان مصيره يتراوح بين الطرد من التعليم والمطاردة في المعاش وبين القتل، وبين ذلك درجات من الحبس والتعذيب واللعن، وكل ذلك لمن اختلفوا مع السلطة ولم يخرجوا عن العقيدة والعبادة في الإسلام.

ولعل ما يدل على مخالفة السلطة العباسية للأصول الإسلامية في التربية والتعليم بالتقليد والتلقين هو عجزها عن مقاومة المد الشيعى الذى اعتمد على دعاة نشطين وعلماء مزودين بثقافة عقلية عالية ومؤسسات جديدة اقاموها الأمر الذى مثل تحديا كبيرا لأهل السنة لم يواجهه السلاجقة بمزيد من القوانين والتضيق على المخالفين في الرأى وإنما بإقامة نظام تعليمى سنى جديد يواجه الفكر بالفكر ويقوم الانحرافات والشبهات بالدليل والبرهان وهذا

منحى التربية الإسلامية في المدارس النظامية.

٣- التربية الإسلامية من النظاميات إلى العثمانيين:

انتشر النفوذ الشيعى في العراق وفارس في القرنين الرابع والخامس الهجريين على الرغم من محاولات الخلافة العباسية حصار الفكر المعارض للفكر السنى وذلك لسطوة البويهيين الذين يدينون بالمذهب الشيعى وقوة سيطرتهم على مقاليد الأمور في دار الخلافة.

وترتب على تزايد نفوذ الشيعة في العصر البويهى إنشاؤهم المؤسسات التعليمية، لنشر عقائدهم والترويج لها، وأثروا هذه المؤسسات بالكتب الكثيرة وأسندوا الإشراف عليها إلى بعض الكبار من العلويين(٣٩).

واستمروا في ذلك حتى تغلب السلاجقة على البويهيين وسيطروا على مقاليد الخلافة إبتداء من عام ٤٤٧هـ، فعملوا وهم من السنيين المتحمسين على تجميد النفوذ الشيعى بأساليب مختلفة، وأدرك وزير السلاجقة نظام الملك (ت ٤٨٥هـ) أنه لا استقرار للسلطة السلجوقية السنية مع انتشار الدعوة الشيعية خاصة وأن العامة والفئات الشعبية كثيرا ما كانوا يميلون ويؤيدون الدعوة الشيعية التى كان أساسها المعلن إعادة الحق إلى أهله والدفاع عن الضعفاء والجهاد من أجل أن تسود العدالة في المجتمع، وارتبط بهذا نشاط دعاة الشيعة بشكل عام والاسماعيلية بوجه خاص فكسبوا أعدادا كبيرة من مختلف العناصر والأجناس مما شكل خطرا ظاهرا على السلاجقة الذين صار إليهم النفوذ بعد البويهيين في دار الخلافة.

---

(٣٩) عبد المجيد أبو الفتوح: المرجع السابق، ص٢١٣.

لهذا كله ادرك الوزير السلجوقى نظام الملك أنه لابد من حركة قوية تناهض الشيعة عامة والباطنية بشكل خاص، ولما كان التعليم من أهم وسائل الشيعة فقد استخدمه نظام الملك فقرر إقامة مؤسسات تعليمية تعد المسلم لخدمة الدولة وقبول سلطتها والدفاع عن عقيدتها السنية، وكان نظام الملك أشعريا شافعيا، وكان الأشاعرة والشافعية في حرب مستمرة مع الشيعة(٤٠).

وتبدو أهداف المدارس النظامية التى بدأت بنظامية بغداد عام ٤٥٩هـ واضحة في نشر الفكر السنى وتربية المسلم السنى وإيجاد طائفة من المعلمين السنيين المؤهلين لتدريس الفكر السنى وتنشئة الصغار عليه فضلا عن سد حاجة الدولة من الموظفين الأكفاء من قضاة وعمال وكتاب أعدوا إعدادا عقائديا وتشربوا المبادئ السنية الدينية والسياسية، ولتحقيق هذه الأهداف الدينية السياسية على وجه يرضى به نظام الملك اشترط في قبول الطلاب بمدارسه أن يكونوا شافعية أصلا وفرعا. ولعل نظام الملك كان يهدف بمقاومة الشيعة إلى توحيد أهل السنة في مواجهة مخالفيهم، ولم يستخدم البطش والارهاب كما حدث من السلطة قبل ذلك وإنما استخدم الفكر لمقارعة الفكر وهذه عودة محمودة لمواجهة المخالفين في إطار الأصول الإسلامية(٤١).

فالسياسة العامة في تأسيس النظاميات هى توحيد كلمة أصحاب المذهب

---

(٤٠) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقى، بغداد، المكتبة الأهلية، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، ص٢٢٢، ٢٢٣.

(٤١) سعيد اسماعيل على: معاهد التربية الإسلامية، دار الفكر العربى، ١٩٨٦، ص٣٥٥، ٣٦٧، وأيضا عبد المجد أبو الفتوح: المرجع السابق، ص٢١٦، وأيضا حسين أمين: المرجع السابق، ص٢٢٤، ٣٣٤.

السنى وتقوية المذهب الشافعى الذى تكفل بالدور الرئيسى في الدفاع عن أهل السنة في العصر السلجوقى وإعداد كوادر سنية بمبادئ المذهب الشافعى في الأصول والفروع وتعيين هؤلاء في الوظائف الرسمية مدرسين وقضاة وأئمة مساجد وخطباء وكتاب وغيرهم.

وقد نجحت هذه السياسة في تقوية المذهب الشافعى وتخريج الكثيرين الذين كان لهم شأن كبير في التربية والتعليم(٤٢).

وقد تم إنشاء نظامية بغداد وافتتحت للدراسة عام ٤٥٩هـ وكانت لها "أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصير إلى الفقهاء المدرسين بها ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم(٤٣).

وإلى جانب نظامية بغداد أنشأ نظام الملك مدارس أخرى في مدن عديدة منها البصرة وبلخ ومرو وغيرها حتى ليقول السبكى إنه أنشأ في كل مدينة في العراق وخراسان مدرسة(٤٤).

ولن نفصل الكلام في أمور كثيرة تتصل بالنظاميات فذلك حديث طويل يضيق المقام عنه وإنما نقرر أن الدراسة في النظاميات كانت دراسة لإعداد المسلم السنى إعدادا عقائديا فهى دراسة دينية سياسية، لذا كانت المقررات الدراسية أو فروض العين كما عرفنا في صدر هذا البحث تقوم على الفقه

(٤٢) حسين أمين: المرجع السابق، ص٢٢٥، ٢٢٦.

(٤٣) ابن جبير: رحلة ابن جبير، بيروت، دار صابر للطباعة والنشر، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م، ص٢٠٥.

(٤٤) سعيد اسماعيل: المرجع السابق، ص٣٥٨، وأيضا حسين أمين: المرجع السابق، ص٢٢٤، ٢٢٥.

الشافعى والفكر الأشعرى إلى جانب القرآن الكريم والحديث
علوم العربية وما يتصل بذلك من علوم لها دور واضح
والقضاة وغيرهما من الموظفين مثل أصول الدين والفرائض

وإذا كانت الكتاتيب وحلقات المساجد هى المؤسس
الإسلامية فإن النظاميات كانت في نفس الطريق مع ا
المقررات الدراسية تجاوبا مع التحديات التى تفرضها بعض
وتمثل النظاميات النموذج الذى سارت عليه المدارس التى
محمود في الشام والمدارس التى أنشأها الأيوبيون والمماليـ
مع تعديلات بسيطة لا تمس الهدف الأصلى وهو نشر
ومحاربة عقيدة الشيعة كما لا تمس المقررات الرئيسية للتر

فمثلا أنشأ صلاح الدين الأيوبى المدرسة القمحية .
مخصصة للفقه المالكى "ورتب فيها أربعة من المدرسين .
من الطلبة وهذه المدرسة أجل مدرسة للفقهاء المالكيـ
ضيعتهم التى بالفيوم قمح يفرق فيهم فلذلك صارت لا
القمحية إلى اليوم"(٤٦)، كما أنشأ صلاح الدين المدرسة الن
وهى مخصصة لدراسة الفقه الشافعى.

ومن مدارس العصر الأيوبى ما كان مخصصا لدرا
والشافعى مثل المدرسة الفاضلية بدرب ملوخيا وقد تأ

---

(٤٥) عبد البديع عبد العزيز الخولى: اتجاهات الدولة العباسية في التر
جامعة الأزهر، العدد ٢٢، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م،ص ٤٠- ٤٥

(٤٦) المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٢، بغداد، مكتبة المثنى، طبعة

ومنها ما كان لدراسة المذهبين الشافعى والحنفى كالمدرسة القطبية التى أسستها ابنة الملك العادل ومن المدارس الأيوبية ما كانت مخصصة للمذهب الحنفى وحده مثل المدرسة السيوفية "وهى أول مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر وهى باقية بأيديهم"(٤٧).

وإلى جانب الفقه الذى يمثل الدراسة الأساسية في المدارس الأيوبية والمملوكية كانت هناك مدارس تخصصت في دراسة الحديث الشريف مثل المدرسة الكاملية التى تأسست عام ٦٢١هـ، ودار الحديث بالشيخونية والمدرسة الخروبية التى تأسست في عصر المماليك البرجية ومدرسة ابن الكويك، ومن المدارس ما كان بها درس طب بجانب فقه المذاهب الأربعة والتفسير والحديث كالمدرسة المنصورية التى أنشأها السلطان قلاوون(٤٨).

وكانت دراسة الفقه على مذاهبه الأربعة المعروفة شائعة منذ المدرسة المستنصرية التى أنشأها المستنصر عام ٦٣١هـ لتعالج عيوب النظاميات التى اقتصرت على الفقه الشافعى، ولذلك كان الفقه على المذاهب الأربعة أحد المقررات الأساسية بجوار القرآن الكريم والحديث الشريف والطب والنحو والفرائض في المدرسة المستنصرية.

ولئن غلب على الأيوبيين إنشاء المدرسة لمذهب أو أثنين من المذاهب السنية فإن الملك الصالح أيوب أنشأ المدرسة الصالحية للمذاهب الأربعة واقتدى به كثير من السلاطين المماليك، ويقوم محتوى منهج المدرسة على التربية الإسلامية في إطار عقيدة أهل السنة ولذا كانت المواد الرئيسية في

(٤٧) المقريزى: المرجع السابق، ص٣٦٣- ٣٦٦.

(٤٨) المقريزى: نفس المرجع، ص٣٦٨- ٣٧٩.

مؤسسات التعليم المرتبطة بأموال محبوسة عليها، لقد وضع الأمراء (العثمانيون والمماليك) أيديهم على البلاد قاطبة حتى على الأوقاف التى على الجوامع والمدارس والزوايا وضاع على الناس خراجهم وحصل لهم الضرر الشامل[٥٠] وما قاله ابن إياس وهو معاصر لاستيلاء العثمانيين على مصر ونهبهم أوقاف الجوامع والمدارس وتعطيل العملية التعليمية في مؤسسات أنشأها الايوبيون والمماليك يؤكده على مبارك عن العصر العثمانى[٥١] بأن المدارس قد إهمل شأنها وامتدت الاطماع إلى أوقافها وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة لكثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد حتى انقطع التدريس بالمدارس كلية وبيعت كتبها وانتهبت.

وفي العصور الإسلامية كان تعليم علوم التربية الدينية الإسلامية يتم بأساليب معروفة منها الحفظ والتلقين والسؤال والمناقشة والاقتداء بالمعلمين، وكان أسلوب الاقتداء من أهم هذه الأساليب وقد نبه القرآن الكريم إلى أهمية هذا الأسلوب وأثره الواضح في التربية والتعليم ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾. سورة الأحزاب الآية ٢١، وقد كشفت أم المؤمنين عائشة (رضى الله عنها) عن سلوكيات الرسول (ص) فقالت في الحديث الصحيح "لقد كان خلقه القرآن"، وهذا يدل على أن المعلم يعلم بحاله وعمله كما يعلم بأقواله، ولذا أكد الشاطبى على أهمية التعلم من الشيوخ لا من الكتب لأن التعلم منهم يدفعنا إلى الاقتداء بهم والسير على نهجهم فلا تظهر البدع لأن الشيوخ يأخذون من معلميهم الذين

(٥٠) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٥، الحلبى، ١٩٦١، ص٢٩٢، ٢٩٣.

(٥١) على مبارك: الخطط التوفيقية، ج١، المطبعة الأميرية ببولاق، ١٣٠٦هـ، ص٨٧.

أخذوا عن شيوخهم وهكذا حتى يصلوا إلى رسـول اللـه (ص) ومـا هكـذا مـن يتعلمون من الكتب وحدها.

وكان طـلاب العلم لحرصهم علـى الاقتداء بمعليمهم لا يرضـون عـن بعض ما يمارسه المعلم في حياته من مباحات يرونها لا تناسب معلم التربيـة الإسلامية المبلغ عن رسول الله (ص)، فمثلا كان أبو اسحق ابراهيم بن أحمد التميمـى الاسـكندرانى (ن ٦٧٦هـ) مـن القـراء الذيـن يعلمـون القـرآن الكريـم "فقصـده الطلبـة وتوقـف بعضهم فـي الأخـذ عنـه تدينـا لكونـه مباشـرا بيـت المال"(٥٢).

وكان أبو العباس أحمد بن ابراهيم بـن سـباع المقـرئ النحـوى الشـافعى خطيب جامع دمشق (ت ٧٠٥هـ) "يجلس للطلبة وقتا قليلا فلا يتمكـن الطـالب من الآخذ عنه إلا بالملازمة مـع الطـول، فلهـذا لـم أقـرأ عليـه، كـان مشـغولا بحضور الوظايف"(٥٣).

ولعل ما عرف عن أبى عمـر أحمـد بـن محمـد الطلمنكـى (ت ٤٢٩هـ) القرطبى المقرئ الحـافظ يصـور لنـا مـا يتطلـب المتعلمـون فـي معلـم التربيـة الإسلامية "وكـان رأسـا فـي علـم القـرآن قراءاتـه وإعرابـه وأحكامـه وناسـخه ومنسوخه ومعانيه، رأسا في معرفة الحديث وطرقه، حافظـا للسـنن، ذا عنايـة بالآثار والسنة، إماما عارفا بأصول الديانات، ذا هدى وسمت ونسك وصمـت. كان سيفا مجردا على أهل الأهواء والبـدع قامعـا لهـم غيـورا علـى الشـريعة،

(٥٢) الذهبى: معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار، ج٢، دار الكتـب الحديثـة، ط١، ص٥٣٠.

(٥٣) الذهبى: المرجع السابق، ص٥٧٢.

شديدا في ذات الله.

أقرأ الناس محتسبا وأسمع الحديث وأم بمسجد متعة منها ثم إنه خرج إلى الثغر فجال فيه وانتفع الناس بعلمه"(٥٤).

هذه معالم سلوكية لأحد معلمى التربية الدينية الإسلامية من أسلافنا وهى تكشف عن البيئة التعليمية التى تقدم لنا السلوكيات الإسلامية في معترك الحياة اليومية، وقد تدنت هذه السلوكيات بدرجة كبيرة في قرون الضعف والتخلف، ومن يقرأ مثلا " الضوء اللامع للسخاوى " ينزعج لما آلت إليه سلوكيات معلمى التربية الإسلامية في القرن التاسع الهجرى، فإذا ما انتقلنا إلى القرن العاشر وما يليه فلسوف نجد أن البيئات التعليمية تأثرت بما فعله العثمانيون بمؤسسات التعليم والأزهر كما سبق القول مثل مصادرة الأوقاف وقد أخذوا الكتب والمخطوطات من الأزهر كما أخذوا كثيرا من العلماء إلى تركيا، وعلى الرغم مما فعلوه بأموال الأزهر وعلمائه ظل يتابع وظيفته الدينية والتعليمية وحمى اللاجئين إليه من بطش العثمانيين، وإلى جانب الأزهر ظلت المساجد الكبرى تؤدى دورها التربوى والتعليمى وكانت تستمد من الكتاتيب حفظة القرآن الكريم، وكانت علوم الشريعة وعلوم العربية إلى جانب بعض الحساب الذى يحتاج إليه في المواريث، وبعض مبادئ علم الهيئة لضبط الوقت وتحديد مواعيد الصلاة ونحو ذلك هى المقررات السائدة في الأزهر وحلقات المساجد الأخرى(٥٥).

---

(٥٤) الذهبى: ج١، مرجع سابق، ص٣٠٩، ٣١٠.

(٥٥) سعيد اسماعيل على: تاريخ التربية والتعليم في مصر، عالم الكتب، ١٩٨٥م، ص٢٨٠، ٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٤.

وعندما تولى محمد على حكم مصر عام ١٨٠٥م بمساعدة علماء الأزهر واستتب له الأمر تنكر للسيد عمر مكرم وللأزهر ثم قام بتحديث التعليم واعتمد على العلوم الطبيعية والرياضية والتعليم العسكرى فأرسل البعوث إلى أوربا، ومع استعانته بأبناء الأزهر في المراحل الأولى إلا أنه أهمل الأزهر والكتاتيب وأقام نظامه التعليمى الحديث وفقا للنظام الأوربى، ومن ثم بدأت مصر تعرف الإزدواج الخطير بين نمطين من التعليم والثقافة: نمط دينى محافظ، ونمط أوربى متجدد، وكان لهذا آثار سيئة ففتت وحدة الفكر بين أبناء المجتمع، ولم يكتف محمد على بذلك فأحصى الأوقاف المحبوسة على الأزهر والمساجد وفرض عليها الأموال الباهظة عام ١٢٢٧هـ فاحتج المشايخ على ذلك وحاولوا إلغاء القرار دون فائدة، ولم يتردد في أن يصادر الأموال المحبوسة على الأزهر وهى واسعة الرقعة وموقوفة عليه، وبذلك أوقع أضرارا بليغة بالأساتذة والطلاب وقد قل عددهم في الأروقة بصورة واضحة، وكان لهذا أثر بالغ في تضاؤل نفوذ الأزهر في القرن الماضى وانتقال مركز الثقل إلى المدارس والمعاهد والبعثات[٥٦].

وقد مر الأزهر من عهد محمد على إلى قانون ١٠٣ لعام ١٩٦١م الخاص بتطوير الأزهر بمراحل تنظيمية وتجديدية مختلفة ليس من هدف البحث الوقوف عندها، ولكن نقف عند الأمام الأكبر الشيخ المراغى[٥٧] في حديثه في يونيه عام ١٩٢٩م مع محرر مجلة "الهلال" الذى سأل فضيلته عن

---

(٥٦) سعيد اسماعيل على: المرجع السابق، ص٣٣٦-٣٣٩.

(٥٧) أنور الجندى: الإمام المراغى، اقرأ (١١٥) اغسطس ١٩٥٢، ص٥٤ نقلاً عن سعد اسماعيل على: المرجع السابق، ص٥٣٤.

السبب في العجز الواضح في الأزهر فقال: هو الاقتصار على اللغة والدين دون ما يلامسهما من العلوم الكونية التى ترتبط بهما، فرجل اللغة يجب أن يدرس الأدب، والفقيه يحتاج إلى المسائل الاجتماعية، وقد كان المتقدمون من الفقهاء يدركون القيمة في درس العلوم التى ترتبط بالدين، بل كانوا يبالغون احيانا في ذلك حتى أن فخر الدين الرازى عندما فسر القرآن تمادى في شرح العلوم التى تتصل بالتفسير بحيث يشعر القارئ أنه أهمل التفسير أو اختصره مع بسط الكلام في هذه العلوم. فالأزهر في حاجة إلى أن يدرس طلبته العلوم الكونية لكى يدرسوا العلوم الدينية".

إن معلم التربية الدينية الإسلامية عندما يدرس كلام الإمام المراغى وديباجة وأهداف قانون ١٠٣ لعام ١٩٦١م، وما فهمه سلف الأمة من الأصول الإسلامية يدرك الكثير عن العلم في الإسلام وفروض العين وفروض الكفاية وإلى أى مدى كان شيخ الأزهر يشعر بالحاجة إلى التطوير. هذا عن الأزهر أحد محورى الازدواجية الثقافية والتعليمية التى صنعها محمد على أما المدارس الحديثة التى أنشأها محمد على أو مدارس التعليم العام والتربية الدينية الإسلامية فيها ففي مرحلة ما قبل الإلزام وهى مرحلة رياض الاطفال صدر أول منهج للتربية الإسلامية فيها بهذه المرحلة في عام ١٩١٨م تحت عنوان "الديانة" والهدف هو غرس محبة الدين في قلوب الأطفال ليستعدوا بذلك إلى تفهم اسراره واجتلاء محاسنه والتشبع من كمالاته عند بلوغهم سن التعقل، وفي عام ١٩٣٣ صدر منهج جديد تحت عنوان <التهذيب> يهدف إلى غرس الفضائل في نفوس الأطفال، ثم صدر منهج آخر عام ١٩٤١ تحت عنوان <التهذيب عن طريق القصص> وكان الهدف منه هو نفس الهدف من منهج عام ١٩٣٣، وهذه المناهج لا تحتوى أية

تفسيرات لمادة الدين وتعتمد جميعها على الجانب القصصى[٥٨].

وفي المرحلة الابتدائية صدر منهج عام ١٩٨٥ بعنوان القرآن الكريم، وفي عام ١٩٠٠ صدر منهج وكان فيه القرآن الكريم للسنتين الأولى والثانية، والديانة والتهذيب للسنتين الثالثة والرابعة وفي عام ١٩٥١م كان القرآن الكريم للسنتين الأولى والثانية وفي السنتين الثالثة والرابعة العقائد والعبادات الإسلامية والتربية والتهذيب، وكان أول منهج للمرحلة الابتدائية ذكر أهداف تدريس مادة "الدين" هو منهج عام ١٩٠٧ "التعليم الدينى" وقد ورد فيه أن هدفى تعليم الدين في المدارس الابتدائية هما: غرس الاعتقاد القلبى بالتدرج في أفئدة التلاميذ-على حسب استعدادهم- بأن الدين هو الذى يحول بين النفوس وشهواتها ويصرف القلوب عن ارادتها السيئة بقهره للسرائر وزجره للضمائر ومراقبة الإنسان في خلواته وإزالته للضلالات وإيجاد الائتلاف والتعاون بين الناس وتعويد التلاميذ من مبدأ أمرهم آداب الواجبات الشرعية والتخلق بالأخلاق الدينية.

وفي منهج عام ١٩١٣ كان العنوان هو <التعليم الدينى>، وفي عام ١٩٢٧ كان اسم المادة <القرآن الكريم والدين> وكذلك منهج عام ١٩٣٠، منهج عام ١٩٣٦، وكذا منهج ١٩٤٩م كانت المادة <القرآن الكريم والدين> أما منهج عام ١٩٥٢، فكانت المادة في السنتين الأولى والثانية هى <القصص والتهذيب> ومن السنة الثالثة إلى السادسة كانت <القرآن الكريم والدين> وكان اسمها في منهج عام ١٩٥٣ <القرآن الكريم والدين> وفي منهج عام

---

(٥٨) يوسف الصفتى: التربية الدينية الإسلامية (١٨٨٥-١٩٨٠) المركز القومى للبحوث التربوية، جهاز التوثيق والإعلام التربوى، القاهرة ١٩٨٠، ص٢٧-٢٩.

١٩٥٧ كان اسم المادة <التربية الدينية> وكذلك في منهج عام ١٩٥٩ وكذلك في منهج ١٩٦٥، ١٩٧١، كان اسم المادة <التربية الدينية> وكانت فروع المادة هى القرآن الكريم والعبادات والتهذيب والسيرة والعقائد(٥٩).

أما التعليم الإعدادى فصدر منهج عام ١٩٥٣ باسم<التربية الدينية>، وصدر منهج آخر عام ١٩٥٩ باسم <والتربية الدينية>، وكذا منهج عام ١٩٦٠، ١٩٦٢، ١٩٦٦، ١٩٧٠، ١٩٧١، ثم صدرت المناهج المطورة عام ١٩٧٧ وتشمل هذه المناهج القرآن الكريم والعبادات والتهذيب وشخصيات إسلامية، والحديث الشريف والعقائد والسيرة(٦٠).

وأما في المرحلة الثانوية فأول منهج ذكرت في خطته الدراسية مادة <الدين> كان منهج عام ١٩٢٨م ثم تبعه منهجا عامى ١٩٣٠، ١٩٣١، وفي عام ١٩٣٥ صدرت مناهج جديدة للتعليم الثانوى ولها مذكرة تفسيرية لخطط الدراسة والمنهج وفيها توجيهات للمدرسين تشير إلى أن الهدف من تدريس مادة الدين هو إعطاء الطالب <ما لا بد للمسلم من العلم به ليستقيم دينه وتصح عبادته وتجمل أخلاقه، وأنه يجب أن يتكفل درس الدين بالغذاء الروحى لهذه النفوس المتعطشة وأن يدرس الطالب في هذه المرحلة ما يكمل به ما درسه في التعليم الابتدائى .....

وفي عام ١٩٤٧ صدرت مناهج الدين مطابقة لما صدر عام ١٩٣٥ مع اهتمام بالناحية الخلقية والشخصيات الإسلامية، وفي عام ١٩٥٣ صدرت أول مناهج في القرآن الكريم والدين تشير إلى توجيهات محددة لمدرسى المادة لترقية أهداف الابتدائى والإعدادى والاهتمام بالنواحى القومية في الحدود التى

(٥٩) يوسف الصفتى: المرجع السابق، ص ٣٤-٦٦.

(٦٠) يوسف الصفتى: المرجع السابق، ص ص ١٨٩ - ٢٠٥.

لا تمس دينه ولا تمس قوميته...، وفي عام ١٩٥٧ صدرت مناهج جديدة قبيل توقيع الاتفاقيـة الثقافيـة وقد توحدت فيها أهداف التربيـة الدينيـة، وفـي ظل الوحدة بين مصر وسوريا صدرت عام ١٩٦٠ مناهج الدراسة الموحدة للمرحلة الثانوية للصف الأول وحده، ثم تلتها مناهج أخرى بعنوان <مناهج الدراسة الموحدة للمرحلة الثانوية العامة> في ١٩٦١/٨/٢م، لتطبق في العام الدراسى ١٩٦٢/٦١ على الصفين الأول والثانى الثانويين فقط وابتدأت هذه المناهج بمنهج للتربية الدينية بعنوان <مناهج التربية الدينية الإسلامية للصفوف الثلاثة بالمرحلة الثانوية العامة، وفي عام ١٩٦٦ عدلت مناهج المرحلة الثانوية وغيرت عنوان مناهج مادة التربية الدينية فأصبحت <مناهج التربية الدينية الإسلامية بالمرحلة الثانوية>، وفي عام ١٩٦٨ صدر منج آخر معدل للمرحلة الثانوية نجد أنه قد تمسك بأهداف التربية الدينية التى وردت في المناهج السابقة منذ قيام الوحدة عام ١٩٥٨ وفي عام١٩٧٠ صدر منهج <التربية الدينية> ثم أصدرت وزارة التعليم القرار الوزارى رقم ٤٥ في ١٩٧٧/٣/١ بشأن تشكيل لجنة تطوير مناهج التربية الدينية وقد مثلت فيها أكثر من عشر جهات في مقدمتها الأزهر الشريف والمعاهد الدينية ومجمع البحوث الإسلامية، ووزارة الأوقاف وكليات دار العلوم والحقوق والتربية ... الخ. وكانت مهمة اللجنة كما حددها القرار الوزارى هى مراجعة مناهج التربية الدينية المقررة وقد حددت اللجنة بعد دراسة الكتب الدراسية والوسائل التعليمية ومدى الملاءمة لاستعدادات الطلاب أوجه القصور وعلاج هذا القصور، وكان من أوجه القصور أن العقيدة الإسلامية لم تأخذ مكانتها الجديرة بها بين موضوعات المنهج وأن القدر المقرر حفظه من القرآن الكريم

الاختصار بدعوى الحجم الكبير !!

واستقر منذ أواخر الستينات مفهوم التربية الدينية في التعليم العام على <التربية الدينية الإسلامية> وهذا واضح في عناوين الكتب المقررة الآن مثل: <التربية الدينية الإسلامية> للصف الثالث الإعدادى ط ١٩٩٥م وفي الغلاف الداخلى <التربية الإسلامية> ومثل <التربية الدينية الإسلامية> للصف الثالث الثانوى ط ١٩٩٤م.

وفي السنوات الأخيرة وتحت ضغط ما يسمى <التطرف> وبعض المتغيرات الاجتماعية وغيرها بدأت وزارة التعليم منحى جديداً لتطوير مناهج التربية الدينية الإسلامية ونأمل أن يكون التطوير خالصاً لوجه الله ومصلحة شعبنا المصرى المسلم العربى.

والأمر لله في الأولى والأخرة